المقاومة بالكلمة في شعر توفيق زياد

بقلم محمد الجزائري

صدر عن دار الاداب كتاب بعنوان « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » للاديب غسان كنفاني وميزة هذا الكتاب انه يستقطب مسائل هامة عديدة :

١ ـ صدوره في ظرف نحن بحاجة ماسة للتعرف ـ جيدا ـ وبرؤية واضحة على معالم النضال الحقيقي داخل الارض المحتلة ..

٢ تضمنه رصدا فكريا للادب الثوري الفلسطيني (والشعر بخاصة) قدمه لنا المؤلف معرفا ، ومزودا بالاستشهادات والنماذج الفنيه الخيرة ..

٣ ـ احتواء البحث على النظرة النقدية المقارنة بين الادب والشعر النضالي في فلسطين المحتلة ، وبين نتاجات الصهاينة .. ومن ثم بين المنطلق الفكري والارضية التي يعتمدها كل منهما ..

٤ ـ ان مقومات الاستشهاد ، ومصادره ، واستقاء النماذج ، اخذت عن جريدة « الاتحاد » ونشرات جبهة « الارض » ، وهي تمثل الصوت الاكثر اخلاصا ، وتضامنا مع القضية الفلسطينية داخل اسرائيل ..

٥ ـ واجمالا .. ثبت البحث الواقع النضالي لصورة « المقاومة بالكلمة » في ظروف الارهاب والاحتلال والعسف .. لا في فلسطين المحتلة ، حسب ، بل في اي زمان ، وعلى اية ارض مشابهة ..

***

احتوى الفصل الثالث من الكتاب نماذج من شعر المقاومة ، لشعراء فلسطينيين يعيشون ويناضلون في الارض المحتلة ، في مقدمتهم الشاعر الشاب توفيق زياد من مدينة « الناصرة » والذي نتصدى لشعره في هذه المقالة ..

***

المقاومة بالكلمة ، اسلوب من اساليب النضال الجماهيري، فالكلمة الثورية هي انعكاس واقع موضوعي متزاحم ومضطرم باسباب وشروط الثورة ، في اتون معركة الشرف والمصير .. لذا اكتسبت ابعادها الخاصة التي تتميز بالثورية والفكر اليساري عموما فالواقع الذي انبثقت عنه ، استوعب كل جزئيات الصراع الطبقي بين المضطهدين والمضطهدين في مسألة الارض ، والحرية .. وتبلور الصراع بين انسانية الانسان والواقع اللاانساني كنقيض يتسم بالتحدة ، والمواجهة ، الافناء والابادة مقابل الصمود ، والتشبث للبقاء .. التوسع الانتحاري مقابل العودة .. لذا فان هذه المعطيات منحت الكلمة لونها النضالي المقاوم.. بحكم استيعابها ابعاد العمل الثوري الساعي للتغيير .. والذي مد جذوره بالوقائع اليومية والاحداث، وارتباطها بقضية الجماهير الكادحة المسحوقة والمضطهدة في الارض المحتلة ..

والكلمة ، تعمل ، في الارض المحتلة ، وتسهم في ايضاح وتعميق ودفع وتغذية ارضية الجبهة النضالية بزخم منظم ، للسعي في استكمال وسائل وابعاد النضال اليومي ، والبعيد المدى ، وتحريك الجو بكل وسائل الدعاية والاثارة والتحريك ، وتنضيج عمليات التعبئة والمواجهة، في معركتنا الانسانية .. ليس ضد الوجود الصهيوني المحتل ، حسب، بل وضد الوجود الاستعماري ، والرجعي الحليف ..

لذا فالكلمة حين نجد طريقها الى الجماهير المناضلة ، وتتغلغل في اذهانها ، تتحول الى منظم جماعي .. والى قوة مادية فعالة ومغيرة..

وانطلاقا من هذا الفهم لطبيعة ودور الكلمة ، في الارض المحتلة ، تكتسب اشعار المقاومة قيمة نضالية وانسانية كبيرة ، لانها الصوت الجماعي الذي يعمق رؤية ابعاد المعركة ويشخص وسائل وسبل التحرك . والنمو ، لتحقيق الانتصار وازالة عار النكبة .. والعدوان..

والقصيدة تحقق فعلها الإنساني حين تحول ـ بوساطة الصور والافكار ـ الى شرارة ثورة تم الى قوة فعالة .. فالقصيدة هي الفعل الاول الذي يقدمه الشاعر المناضل في معركة الوجود والمصير ، انها تسبق تضحياته الاخرى ، لانها ترسم طريق هذه التضحيات . وتمهد لها ، الا اذا تحول الشاعر الى جندي باسل يحمل سلاحه الى جانب الوعي والكلمة .. اذ ذاك ، فستكون حياة الشاعر هي القصيدة الاروع .. وهي الفعل الناجز بأعلى اشكال التضحية والفداء .

وانطلاقا من اهمية الكلمة الواعية الانسانة ، والخيرة في المعركة .. تتجسد امامنا حقيقة كون شعر المقاومة ، في الارض المحتلة ، واقعا تحريكيا يعمل وينمو ويحقق افعاله وشروط انطلاقه من خلال عمله الانساني ، ومن خلال رد الفعل الجماهيري الذي يخلقه والذي يتحول من انصات جماعي ، الى عمل نوعي ، ضد قوات الاحتلال والعسف والاضطهاد ..

لذا فالاهمية الاولى التي يكتسبها شعر المقاومة ، في الارض المحتلة ، في تخطيه مكانية الارض ، وزمانية الاحداث ، .. وتجاوزه الحدود الاقليمية والاثارية ، ليحتوي من خلال تفاصيله ، التعبير الاكثر شمولية عن انسانية الانسان ، في صراعها وصمودها ، ضد كل وسائل السحق والابادة والاضطهاد :

« لاني لا احوك الصوف (*)
لاني كل يوم عرضة لاوامر التوقيف
وبيتي عرضة لزيارة البوليس
للتفتيش و « التنظيف »
لاني عاجز ان اشتري ورقا
سأحفر كل ما القى
واحفر كل اسراري
على زيتونة
في ساحة الدار .. »

هذا الواقع الذي يصوره الشاعر بقصيدته « على جذع زيتونة » تخطى في المواجهة الواقع الاحتلالي الذي يعاني منه ابناء الارض المحتلة، الى واقع احتلالي عام ، الى ظاهرة العسف التي يعيشها احرار العالم ضد كل اجهزة القمع .. مع اختلاف مواقعها الجغرافية ، لان « نوعية » العسف واحدة ، في كل مجتمع مشابه بل ، وفي ظل اية حكومة طبقية ونظم استعمارية او تابعة ، او لا ديمقراطية عموما ..

لكن واقع المقاومة بالكلمة يتجسد في اكتسابه الطابع النضالي ، المتحدي ، اولا ، ومن ثم ، لكونه ينبع من ايمان عناصر المقاومة بالانتصار الحتمي .. لذا فالشاعر يجسد حقيقة فهمه للنهايات الحتمية التي يؤكدها المسار التاريخي .. بصور مشبعة بالجزئيات المتكاملة عن

(*) اشارة الى مدام لافارج التي كانت تحوك اسماء خونة الشعب لتقص منهم عند اندلاع الثورة الفرنسية .

قصة الانسان المعذب ، والمكافح ، في وطنه :

« سأحفر قصتي وفصول مأساتي
وآهاتي ..
على بيادتي ، وقبور امواتي
واحفر كل مر ذقته
يمحوه عشر حلاوة الآتي ! »

والاشراق الثوري تبلوره الكلمات الاخيرة في المقطع أعلاه ، وهو السمة التي يحقق أدب المقاومة وجوده من خلالها .. وهذه السمة ، عامة وانسانية وذات بعد أممي في ذات الوقت ، لكونها تكتسب صفاتها من خلال تفاصيل حياتية ومجتمعية ، ونضالية ، موجودة ، وعامة :

« سأحفر رقم كل قسيمة
من أرضنا سلبت
وموقع قريتي وحدودها
وبيوت أهليها التي نسفت
واشجاري التي أقتلعت
وكل زهيرة برية سحقت
واسماء الذين تفننوا
في لون اعصابي وأنفاسي
واسماء السجون ، ونوع كل كلبشة
شدت على كفي
ودوسيهات حراسي
وكل شتيمة صبت على رأسي »

وهذه الجزئيات والتفاصيل لا تجسد لنا صورة محلية عن العسف والنضال .. فالسجون موجودة وتحتضن الناس الخيرين في كل البلدان التي تضطهد حكوماتها الفكر التقدمي .. فهي ليست تجربة الارض المحتلة وحدها .. بل كل المواقع التي يصارع فيها الانسان ، عدوه ، من اجل المستقبل الافضل والقيم والاهداف الانسانية .. حتى لتكاد هذه الجزئيات تتقارب وتتحتم مع « الانسان » كوجود مضطهد وكظاهرة عامة .. وهذا يؤكد انسانية الكلمة المقاومة ، ورؤيتها الثورية ، وفكرها اليساري ، في تناولها الواقعي وشحنتها النضالية ..

والميزة الاخرى التي يتميز بها شعر توفيق زياد .. هي روحية الصبر الكفاحي وطول النفس الذي يمتاز بهما المناضل الثوري الصامد ..

« على مهلي ..
اشد الضوء خيطا ريقا
من ظلمة الليل ..
وارعى مشتل الاحلام
عند منابع السيل
وامسح دمع احبابي
بمنديل من الفل
واغرس أندر اللوحات
وسط حرائق الرمل
وابني للصعاليك الحياة
من الشذا والخير والعدل
وان يوما عثرت على الطريق
يردني أملي .. »

هذا التمهل الصابر وهذه المشاركة الفعلية في صيغة أفق المعركة والمؤدية للانتصار .. يتبلور ، بصور فطنة ، تحمل ذكاء الالتقاط ودقة التفاعل على مجموع خطوط اللوحة .. ابتداء من استقاء الضوء من ظلمة الليل وشده ، (أي محاولة تجميع كل قوى الخير والنضال ..) الى محاولة العثور على المنتهى ، والطريق ..

هذه الصلاة النضالية التي تناجي الحياة والطبيعة والانسان ، تحقق في داخل الشاعر ، ترسبات كاملة تتجمع ، وتتحرك ، حتى تصل درجة الاتقاد فتشتعل :

« على مهلي ..
لاني لست كالكبريت
أضيء لمرة واموت
ولكني ..
كنيران المجوس ، أضيء
من مهدي الى لحدي
ومن سلفي الى نسلي
طويل ـ كالمدى ـ نفسي
واتقن حرفة النمل ... »

وهذا التجسيد المكثف الذي توضحه صور قصيدة « نيران المجوس » تتمثل به البساطة العميقة في التناول ، والتي تمد جذور الصورة بطاقة سيكولوجية عالية ، وتغذيها بنسغ جديد ، تلكم هي طاقة المناضل الواثق من نفسه ، والمدرك لابعاد قضيته ، والواعي لسبل كفاحه ، والمشخص لملامح دربه الطويل .. والذي يلمس عثار المسير والاشواك .. ويتحسس كل الصعاب بوعي منظم صابر .. ومن هنا فهو « يتقن » « حرفة النمل » بما تحتويه هذه « الحرفة » من نشاطية ومثابرة وعمل دؤوب .. لان الشاعر ، يدرك ، من خلال مواقع المقاومة بالكلمة ، ان التاريخ يعرف وظيفته :

« على مهلي ..
لان وظيفة التأريخ
ان يمشي كما نملي
طفاة الارض حضرنا نهايتهم
سنجزيهم بما أبقوا
نطيل حبالهم ، لا كي نطيل حياتهم
لكن لتكفيهم
لينشنقوا .. ! »

وهذه الصياغة للحتمية التاريخية ، تنشأ ـ عند الشاعر ـ من فكر مادي ديالكتيكي ، ومن استيعاب لحركة قوانين الحياة ، ورؤية واعية للحاضر ، والماضي .. والمستقبل ، ذات تجربة تاريخية .. لذا فالمقاومة بالكلمة ـ هنا ـ مقاومة حقيقية ، واعية ، وعميقة الجذور ، لذا فهي ترسم سفر تكوينها الحتمي ، ولا تهمل ان تضع نهايات الطغاة في مكانها المعروف ، لكيما تتم طبيعة التوازن الفكري في اللوحة التي رسمها الشاعر .. ولكيما تحمل القصيدة معادلها الموضوعي ، الذي يعطي ، في النتيجة ، حكمه القاطع ، بنهاية الطغاة وانتصار الانسان وقضيته العادلة .. وهذه ميزة اخرى عمقت في قلوبنا الحب لهذه الاشعار الثورية الهادفة .

والقصائد ، كقصائد مقاومة ، تحكمت في صياغة تكتيكها واستراتيجها ، شعريا ، بشكل متكامل الثورية ، ابتداء من عملية « حياكة الصوف » رمز العمل الساخط ، المنظم ، والدقيق والصابر الى « اطالة الحبل » .. لكي تكفي لشنق الطغاة ..

العملية ، اذن ، تحتوي بعدها الزمني ، وتخطيط افعالها ، بنمو طيب وهادىء ، ومصمم لكيما تحقق نتائجها التاريخية ، بعيدة عن الانفعال العاطفي ..

ان شاعرا يمتلك هذه القابلية في تجسيد فكره الثوري بصياغات شعرية بعيدة عن السقوط بلغة الشعارات .. ان شاعرا يعيش ظروف العسف ، والمقاومة . لا كانسان حسب ، بل يعيشها مصير امة ، وقضية وطن ، انتفاضا واعيا ، هادفا ، ومنظما ـ ان شاعرا كهذا ، لهو التكامل الجيد والتطابق الكبير بين الشكل والمضمون الثوريين للمقاومة كعملية كبيرة ، لا للقصيدة كوحدة منهجيه ذات بناء ثوري متكامل ، بل وكعمل شعري عام وانساني .. وهذه هي الميزة الاخرى لهذا الشاعر بالذات ، ولشعر المقاومة ، أيضا ..

« فالادب والفن .. ليسا نشاطا فرديا محضا .. بل هما نشاط اجتماعي انساني ينبع من الفرد بوصفه كائنا اجتماعيا يمارس الحياة

الجماعية ، وينفعل بأحداثها ويتأثر وجدانه بحقائقها الموضوعية ويؤثر هو بدوره فيها على قدر وعيه لقوانين تطورها ، وعلى قدر فهمه لضروراتها الاجتماعية » .

اما الافق الحالم .. افق التمني المشروع الذي يجمع الشاعر فيه خطوط طموحه الاجتماعي كشاعر قضية ، تفترض وجود مطاليب واهداف آنية وبعيدة المدى تصاغ بشعارات .. لكنه يعبر عن كل ذلك في « احب .. ولكن » هذا الوجود المتصالب بين الاهداف ومحاولات تحقيقها ، وبين العقبات ، كوجود استعماري ـ احتلالي ـ صهيوني .. يصوره الشاعر من خلال تفاصيل جذابة وثائرة يحتفظ من خلالها بأصالته وبراعته في التناول والتكثيف ، وتحويل الشعار الى واقع منظور من خلال الصور ، لا من خلل الكلمات المباشرة :

« احب لو استطعت بلحظة
ان اقلب الدنيا لكم رأسا على عقب
واقطع دابر الطغيان
احرق كل مغتصب
واوقد تحت عالمنا القديم
جهنما مشبوبة اللهب
واجعل افقر الفقراء
يأكل في صحون الماس والذهب
ويمشي في سراويل
الحرير الحر والقصب
واهدم كوخه ، ابني له
قصرا على السحب .. »

ان واقع التمني الذي يمد الثوري برؤية مستقبلية متفائلة يبررها كتطلع مشروع من خلال سلوكه النضالي .. هذا التمني .. يبقى الحلم الذي يضج في خيال وفكر الشاعر المناضل ، حتى يتحقق عمليا ، من خلال النضال ، والمقاومة ..

والشاعر المقاوم بالكلمة في امتلاكه لرؤياه الثورية، يشبع سلوكه من يقين بالنصر ، ويوطد يقينه هذا بمقومات فكرية صائبة تتماشى مع واقع التحولات الاجتماعية الكبيرة التي تتمخض عن نضالات الشعوب ، والتي تشكل ركيزة تضامنية مع مقاومة الشاعر ، بالكلمة ، والعمل والقضية الفلسطينية كمنطلق وكهدف نضالي يجمع كل العرب ويصهرهم في بوتقته ..

هذا الشاعر يحدد ، شعريا ، هذه الرؤى ، بموقف واضح تجاه كل اسباب الشقاء ، ومن ثم يتبع طريق الكفاح الدائب لخلق البديل الثوري واجهزة الحكم والانظمة التي تحقق الجنة على الارض ، وتبني الاشتراكية ، لكيما ـ يستطيع كشاعر ـ « هدم الكوخ » ـ النظام القديم . وايجاد البديل الثوري « القصر على السحب » ـ النظام الجديد ـ من خلال عملية « قلب الدنيا » .. هذه النظرة ليست « انقلابية » بالفهم السلبي ـ الدموي . للانقلابات .. لكنها ثورية تعني تغيير العالم ، .. انه يفلسف موقفه لا على اساس فهم الواقع ، حسب ، بل والسعي لتغييره ..

« لكن .. » لكيما « يوقد » تحت « العالم القديم » « جهنما مشبوبة اللهب » يحتاج الى وسائل واساليب كفاحية عالية ، الى نضال دائب ، الى تسجيل الموقع بعد الموقع في معركة التحرير .. الى قاعدة جماهيرية متلاحمة ، وعمل دائب للاطاحة بالانظمة البالية ، والمتعفنة ، التي تفرق جماهيرنا العربية بقيود العسف والظلم .. والانظمة الاخرى ، المستأثرة بالحكم ، ذات الصفة الديكتاتورية ، لانها، ايضا ، وبشكل او بآخر تسهم في ابقاء الاوضاع الاحتلالية في فلسطين مدة اطول .. ومن هنا فهو ، لا يسعى لازاحة قوى العدوان والاحتلال عن الارض الفلسطينية ، بل ويهدم على رؤوس كل الغاصبين قصورهم الورقية التي تفح نارا ودمارا لجماهيرنا الكادحة ..

هذه الصور المتزاحمة تتلاحم لتكون الهيكل العام لقصائد الشاعر، في بنيتها الثورية . وفي حدتها وعنفها ، ولكنه ـ في ذات الوقت ـ يلون قصائده بغنائية عالية ، وفي تناغم هارموني متكامل ، لتبدع سيمفونية الثوار ، في تطلعهم الشريف للعالم الافضل .. لكن هذه التطلعات وهذه المساعي والنضالات ، تقف أمام الشروط المادية ، للواقع الموضوعي والذاتي ، .. وتواجه كل مسببات الاضطهاد والعسف والوانهما ..

لكن الشاعر ـ كثوري ـ يتخطاها في رسم اسباب ازالة هذه المسببات ، ازالة العدوان وقواه واثاره .. والذين يسهمون في بقائه .. وهو يعي هذه المقومات والمعوقات جيدا :

« ولكن للامور طبيعة
اقوى من الرغبات والغضب
نفاد الصبر يأكلكم فهل
ادى الى ارب ؟ »

ويتكثف هذا التصعيد في التطلعات المشروعة والرغبات الغاضبة، لكل المسحوقين والمضطهدين ، النافدي الصبر .. لكن الشاعر لايخدرهم، ولا يخدعهم بالاماني .. انه يضع أمامهم شرائح الواقع ، لكيما يكون النضال لازاحة وتغيير هذا الواقع ، علميا لا عاطفيا ، ولكيما تكون النتائج مثمرة .

هذا الشاعر ، اذن ، يمتلك رؤيته الثورية السلمية للاحداث وللواقع .. وهذا ما يفتقده اليوم ، وافتقده بالامس ـ ايضا ـ حتى بعض قادة النظم التقدمية في البلدان العربية ..

والشاعر ، هنا يتصف بالنفس الطويل والصبر الذي يمتلكهما المقاوم الباسل .. « ولكن للامور طبيعة اقوى من الرغبات والغضب » .. وهنا تكمن الميزة الاساسية في ثورية الشاعر .. ليس كداعية ، او كثوري « منفعل » بل كثوري فاعل ..

ومن هنا يصعد النداء العام لكل الناس الذين يحبهم لتحديد طريق النضال ـ بالجماهير الكادحة لانها صانعة التاريخ ، وخالقة المعجزات :

« صعودا ايها الناس الذين احبهم
صبرا على النوب
ضعوا بين العيون الشمس
والفولاذ في العصب
سواعدكم تحقق اجمل الاحلام
تصنع اعجب العجب ! »

هذه الصيغة الجماعية التي استعملها الشاعر ، نابعة من ايمان الواقعية الاشتراكية بالجماهير ومن معارضتها الفعالة لعبادة الفرد ، واعتمادها على الجماهير ، لصنع مستقبلها بالارادة والعمل الثوريين ..

لذا فهذا التكامل الذي حققه الشاعر ، بالصور ، يطابق افكاره الايديولوجية ، واهدافه وهو المنشأ والركيزة الواعية التي تقف عندها ابعاد « المقاومة بالكلمة » .. فالعمل الثوري يجب ان يعتمد على ايديولوجية ثورية ، تنظم سبل النضال ، والمقاومة ، واستكمال شروط العمل الجماهيري .. وبدون نظرية ثورية مرشدة يظل العمل اعمى .. وتصبح المقاومة عملا غير ممنهج ، وغير هادف .. ولا تحقق انجازها الثوري بشكل جيد ..

وشاعرنا يملك امكانية تقييم الحقائق الموضوعية ، وامكانية تحليلها، من خلال امتلاكه لايديولوجية ثورية ... لذا فهو يدرك ابعاد المستحيل في خسارة الانسان لقضيته ، لان الانسان لا يمكن ان يخسر قضيته العادلة مهما مرت الاعوام ، ان هو ناضل ، واستمر في نضاله بوعي منظم .. فالحقائق الموضوعية لا يمكن ان تتحول الى مواقع مضادة ضد عدالة اية قضية الا اذا اسيء استعمالها واستغلالها ، وفهمها ..

« أهون الف مرة ..
ان تدخلوا الفيل بثقب ابره
وان تصيدوا السمك المشوي في المجره

ان تحرثوا البحرا
ان تنطقوا التمساح .. »

وهذه التداعيات في صور الحقائق المستحيلة يخرج بها الشاعر ، في منطق تحليلي صائب ليؤكد نتيجة منطقية يفرضها طريق النضال :

« اهون الف مرة
من ان تميتوا بأضطهادكم وميض فكره
وتحرفونا عن طريقنا الذي اخترناه
قيد شعره .. »

وهذا الاصرار البطولي العنيد يشكل شاخصا ثوريا من شواخص « المقاومة بالكلمة » لان التجنيم يحدد ملامح اللوحة ، على الصيغة التالية :

« كاننا عشرون مستحيل
في الثلد والرملة والجليل »

وكان من الضروري ان يقول الشاعر « لاننا » بدلا من « كاننا » ليستكمل صورة الاصرار البطولي الفعلي في الوجود القائم !. لان هذا الوجود هو واقع موضوعي .. يميز طبيعة المقاومة في الارض المحتلة :

« هنا على صدوركم ..
باقون كالجدار
وفي حلوقكم
كقطعة الزجاج .. كالصبار
وفي عيونكم
زوبعة من نار .. »

وبعد تاكيد الشاعر ، اصراره والذي هو اصرار المقاومة ، في ضرورة البقاء لصق الارض وفي تحد دائم للطاغوت ، يكرر قيم الإصرار من خلال تكرار « نوع » « الفعل » بصور متنوعة تهدف وتعمق « الحضور الثوري » وابعاد المسألة .. « كقطعة الزجاج .. كالصبار .. والزوبعة .. »

وينتقل ، في تبيان ، نفس الحقائق « النوعية » ، بصور اخرى ، بالبديل السلبي المقابل الذي يقدمه الطغاة كاسلوب يطيل في بقائهم..

« هنا على صدوركم باقون كالجدار
نجوع ، نعرى ، نتحدى
ننشد الاشعار
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الاطفال جيلا ناقما
وراء جيل .. »

وهذه ميزة اخرى في شعر المقاومة ، فالاصرار « النوعي » يثمر « تفاصيل كمية » .. تتحول هي بدورها الى وجود نوعي جديد .. « اجيال الاطفال الناقمين » ..

اما العددية في « العشرين مستحيل » ، فهي ترتبط بنوعية النضال ، ونوعية صنع الاجيال ، لتلون المعركة بالترابط العضوي والديناميكية والاستمرارية ..

ان هذه الصور ، تحدد لنا بأن المعركة ليست معركة « نوعية » الاحتلاليين والاجهزة القمعية ، حسب ، بل ، « عدديا » ، هي معركة المواجهة لخلق السخط المنظم الذي يولد جيشه الخاص ، جيلا بعد جيل ومن جديد .. فأن هذه الملحمة الانسانية المتكاملة : المقاومة .. تتجسد رائعة من خلال كلمات الشاعر ، وفي مضامينه الواعية لمسارها وابعادها الثورية .

ـ فالشاعر يبدأ بأسلوب جزمي تاكيدي : باقون كالجدار .. وهو يمثل « البقاء »

ـ ثم يطور اساليب النضال من خلال ردود الفعل والنتائج : نجوع ، نعرى .. وهي تمثل « التضحية »

ـ ثم في عنصر المواجهة لهذه الاساليب : نتحدى « بالصمود »

ـ ثم يطور هذا المسلك الكفاحي لينقله الى التعبئة بالفكرة : وننشد الاشعار وهي تمثل « الثبات الايديولوجي »

ـ ثم تتصاعد عملية الدفع الثوري والمقاومة بالكلمة فتتحول الى المقاومة بالعمل : نملأ الشوارع بالمظاهرات

ـ وتزداد حدة الموقف النضالي قوة وضراوة : ونملأ السجون .. كبرياء

ـ ثم تتركز الطبيعة الثورية وتمد جذورها في الارض والناس والتاريخ : ونصنع الاطفال جيلا بعد جيل . هذا التطور الثوري في اساليب الكفاح ، ينبع من حضارية الشاعر ، وانسانيته التي يحرص عليهما حتى وسط الجو الاحتلالي العنيف .. ليظل يحرس « التين والزيتون » رمز انسانية الشاعر وحضاريته :

« انا هنا باقون
فلتشربوا البحرا
نحرس ظل التين والزيتون »

وعبر ، هذا الاصرار ، تتبع الرؤية التطلعية لاستعادة الارض المحتلة ، ورجوع الشاعر سيدا على ارضه ، كما كان ، وكما يجب ان يكون .. لذا فهو يظل يناضل ويناضل ، مع الجموع الثائرة ويحمل في صلبه ، صبر المناضل وغضبه :

« ونزرع الافكار كالخمير في العجين
برودة الجليد في اعصابنا
وفي قلوبنا جهنم حمرا »

ويرسم صورة التحدي ، والمثابرة على النضال ، بتصاعد متناغم في الصور الثورية :

« اذا عطشنا نعصر الصخرا
وناكل التراب ان جعنا
ولا نرحل ..
وبالدم الزكي لا نبخل
هنا : لنا ماض
وحاضر
ومستقبل »

بهذه العزيمة الجبارة : « لا نرحل .. » وبهذا القدر الكبير من التضحية : « وبالدم الزكي لا نبخل » تتحقق افعال الثورة ، بعد ان تنضج شروطها الذاتية والموضوعية ، فحين يلازم المناضل الثوري مناخ العمل ، فيخلق منطلقاته ، ويدفع العجلة الى امام .. تتبلور صورة

صدر حديثاً

ثائر وحب

ديوان شعر

للدكتور ابو القاسم سعد الله

دار الاداب

الى زوجة الشهيد

ـ ١ ـ
تودّ عين نسرك العظيم ..
وانت تعلمين ..
بأنه ، المحال ، أن يعود ..
لانه أراد أن يعيش ..
وأن تعيشي بعده ..
شموخة الجبين .
في تربة تفيض كبرياء ،
من بعد ما تسبحت ، بأنهر الدماء ..

ـ ٢ ـ
صري له زوادة الوداع ..
بقبلة مبحوحة الصدى ،
وضمة ندية الذراع ..
شدي على يمينه القوي ..
« الى اللقاء » يا فارسي الشجاع ..
في موطن جنوده ، لمجده قلاع ..

ـ ٣ ـ
سيعلم التراب في سفوحنا ..
ويدرك الشموخ في القمم ..
بأن كل ذرة ،
من أرضنا علم ..
نذود في ظلاله
ونشرب اللهيب في نضاله
وننتهي كومضة الصباح ،
في رماله ..
ليبدأ الخلود ..
يفرع الغصون من جديد ..
ويستقي من مهجة الشهيد ..
ضياءه الوضاح ..
فتستمر شعلة الكفاح ..
وميضها لا يختفي .
سراجها لا ينطفي ..
تركع دون مجده الرياح ..

ـ ٤ ـ
صري له زوادة الامل .
وشبكي في قلبه الفتي
تاريخنا العتي ..
وحمليه ذكريات الفرح ..
العرس ، والحناء ، والمرح .
ومزمزات الكأس والغنا
وسهرات اللهو والهنا .
في بيدر المنى ..
وقربي لعينه أشعة الخلود .
والهبي بنبضه العنيد ..
حماسة الرجال ،
ونخوة ، بمثلها يعمر الرجال .
اذا تهاوت ، قلعة الصمود ..

ـ ٥ ـ
اذ ينتهي ...
لا تذرفي الدموع ..
غروبه مطالع الشموس
وليله توقد الشموع ..
وذاك ، أن من اراد أن يهب ..
لا يطلب الجزاء .
لانه من شعلة العطاء ..
توهج لا يعرف التعب ..
كأنه ، مدامع السماء في الشتاء ..
هل تطلب الجزاء ؟.
شعارها ، ان يستحم الورد في الحقول ..
وتمرع الطيوب في الربا ..
ويزهر الصبا ..
كذلك الشهيد ..
حياته مواسم ،
لا تعرف الحدود ..
وموته لشعبه ، خلود ..

(صوفيا) صابر فلحوط

الثورة في اذهان المناضلين ومن ثم تتحول الى واقع موجود .. وفاعلية متحركة ، اذ ذاك ، وحين تستكمل الثورة شروطها ، لا يبقى امام المضطهدين الا ان يحطموا القيود والاغلال ، لينطلقوا من مواقعهم الصلدة ، ومن اصولهم العميقة ، في عملية تسجيل انتصاراتهم ومكاسبهم ..

« يا جذرنا الحي تشبث
واضربي في القاع يا اصول .. »

وفي ختام قصيدة « المستحيل » يحدد الشاعر ، النتائج الحتمية التي يصنعها التاريخ ، ويخلقها الفعل الثوري :

« افضل ان يراجع المضطهد الحساب
من قبل ان ينفلت الدولاب
لكل فرد رد فعل
أقرأوا ما جاء في الكتاب
كاننا عشرون مستحيل
في اللد والرملة والجليل »

وكان « الكتاب » في النهاية ، هو انجيل الثورة . لذا فهو يحدد النهايات ، كما حدد البدايات برؤية متمكنة من التحليل العلمي ، الواعي ، متميزة بالوضوح والثورية ، ومشحونة بجدلية عالية ضمنها ، الشاعر ، ردوده على تحديات المستعمرين ، والصهاينة المحتلين ، وافكارهم ..

وكانت لوحات عامرة ، بتحدي المناضلين لكل الطغاة والانظمة العسفية ، من خلل صور البسالة والصمود والاستعداد النضالي العالي للمقاومة ..

ان شعبا ينجب شاعرا ومناضلا يمتلك هذه الطاقات الخيرة والرائعة ، ويبرر وجوده بتحويل افكاره الى واقع ملموس ، بالنضال اليومي الدائب .. وبالمواجهة الفعالة ، لهو يغطي للمقاومة بالكلمة عمقا جديدا ، هو انها التعبير الاكثر دقة عن المقاومة بالسلوك .. ايضا .. عن المقاومة الباسلة ، للمناضلين ، الثوريين ، المفكرين والمطبقين في ذات الوقت ..

ان هذا الشعب .. لهو شعب حي .. وان الشعب الذي يواجه ابطاله ، وهم تحت ظلال حراب المحتلين ، وفي خضم النار والعذابات والتنكيل والمشانق بهذا الوعي الثوري المتصاعد ، لابعاد قضيتهم ، ليمكن انه يخلق المعجزات ، من خلال المستحيلات التي يضعها امام العدو ..

ان توفيق زياد ، شاعر وانسان ، ومناضل باسل ، حقق بالكلمة مقومات المقاومة واساليبها وهذا حسبنا .. ففيه المثل الرائع لابناء فلسطين البواسل الذين يواجهون الواقع الاحتلالي ببسالة ، وعليهم وحدهم ـ كأساس ـ مهمة انجاز الثورة في داخل ارضهم ..

بغداد **محمد الجزائري**